

السيمائية منهج السني نقدي

أ.أمال كواش

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة

الملخص:

انبثقت السيميائية كمنهج نقدي تتناول النص بالتحليل والدراسة مع منتصف القرن العشرين، وذلك ضمن المعطيات العامة في التحليل النصي، وساعد على انبعث هذا المنهج النقدي الجديد انحسار البنيوية وانغلاقها على النص، وإغائها لكل الملابس والسياقات المتصلة بفضائه الخارجي، مما أدى إلى عزوف العديد من الدارسين ومن بينهم من كانوا زعماء لهذا المنهج البنيوي نفسه، ونقصد بهم كل من "رولان بارت" R. Barthes و"جاك دريدا" J. Derrida و"جوليا كريستيفا" J. Kristeva وغيرهم، بالإضافة إلى عوامل أخرى كثيرة في مقدمتها ظهور جماعة (كما هو) Tel Quel. وعلى الرغم من حداثة المنهج السيميائي في مجال النقد خصوصاً، إلا أنه لم يكد يستوي على عوده، حتى سلك عدة اتجاهات في تناول النص من اتجاه يرى في السيمياء دراسة للأنظمة الدالة من خلال الظواهر الاجتماعية والثقافية الملازمة للنص، واتجاه ثان يرى أن السيمياء هي دراسة لأنظمة الاتصال اللغوية منها وغير اللغوية، واتجاه ثالث حاول أن يوفق بين الاتجاهين السابقين؛ أي بين العلامة اللغوية والعلامة غير اللغوية باعتبارهما يتكاملان مع اللسانيات. ومهما يكن من أمر، فإن هذه الاتجاهات تضعنا أمام استنتاج هام في كون التوجهات النظرية في الدرس السيميائي المعاصر على اختلافها تستنجد — غالباً — بالنظريات اللسانية، وهو مسار يحتم على المتصدي للنص أن يكون مدركاً تمام الإدراك أن هذا النص يوظف بني لغوية متعددة، ومن ثم فإنه لا يمكنه استكناه معانيها إلا باللجوء إلى بنياتها العميقة.

Abstract:

The semiotic has derived as a critical method treating the text with analysis and study during the mid twenties century; according to the general data of the analysis, it has helped to the

appearance of the new critical method, which has led to the by making the structural form of the text away, closing and excluding all its relations with the external world, that is why many of the researchers in the field of the structural method have left it among them: Roland Barthes, Jack Derrida, Julia Kristeva ... etc and others; in addition, to other various circumstances as the appearance the Group (Tel Quel).

Even though, the newness of the semiotic method, mainly in the domain of the critical study; but it has got dimensions in different treatments of the text. The first direction viewed the semiotic study linked to a systems meaning the social and the cultural contexts of the text. The second direction saw this study related to the systems of communicative languages and others. Third direction tried to combine between the language symbol and non-language; for they were complementary to linguistics.

These directions led us to an important conclusion; these methodical directions specially in the lesson of the contemporary semiotic was based on the help of the linguistics theory and it was a way which obliged to know that this text used various language structures, in an acceptance of its senses except through the using of a profound structures.

السيمائية منهج ألسني نقدي ----- أ. أمال كعواش

توجه انتقادات متعددة إلى الجهود النقدية المنبعثة من اللسانيات البنيوية، لذلك بدأ ينهض جيل جديد من الباحثين والناقدين الذين عرفوا الكشوفات البنيوية جيداً، لكنها - على رأيهم - تميزت بعدم الكفاية المنهجية وأطرها الضيقة التي لم تتح لهم الانضواء في ظلالها، بل الخروج عليها، محاولة منهم تحرير المنهجية النقدية من القيود الصارمة، فانطلقت ثورة جديدة في عالم النقد عرفت بالسيمائية، هذا التيار النقدي الذي يحاول نقد الوصفية البنيوية المجردة ونموذجها اللغوي.

لقد احتلت السيمياء حقول المعارف النقدية والأدبية علماً يهدف إلى البحث عن دلائل العلامات وتأويلاتها في الكون كله، وكان لهذا التوسيع في مجالاتها وانفتاحها الكبير أن تداخلت معها العلوم والمعارف العلمية والإنسانية، لكنها استطاعت في الأخير أن تجد لنفسها منهجاً مستقلاً، محاولة فرض تطبيقاتها على مختلف مظاهر الحياة.

1- ماهية المنهج السيميائي الألسني

أغلب الدراسات الغربية تذهب إلى أن كلمة (السيمياء) La Sémiotique مشتقة من الكلمة الإغريقية Sémeion الذي يحيل على (سمة مميزة) Marque distinctive، (أثر) Trace، (قرينة) Indice، (علامة منذرة) Signe précurseur، (دليل) Preuve، (علامة منقوشة أو مكتوبة) Signe gravé ou écrit، (بصمة) Empreinte، (تمثيل تشكيلي) Figuration.¹

وتشير دراسات أخرى إلى أنها مشتقة من الأصل اليوناني Seméion الذي يعني (علامة)، و Logos الذي يعني (خطاب) وبامتداد أكبر كلمة Logos تعني العلم.²

¹ - انظر: يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي. (دار جسر للنشر والتوزيع: الجزائر). ط: 1. 2007م. ص: 93. نقلاً عن:

Julia Kristeva, La Révolution du Langage Poétique, Edition du Seuil, 1974.P: 22.

² - انظر: فيصل الأحمر، معجم السيميائيات. (منشورات الاختلاف - الدار العربية للعلوم ناشرون: الجزائر، لبنان). ط: 1. 2010م. ص: 11، 12.

السيمائية منهج ألسني نقدي ----- أ. أمال كعواش

أما عن اشتقاقها العربي فجاء في: لسان العرب أن: «(السيمياء) بمعنى (العلامة)، مشتقة من الفعل (سام) الذي هو مقلوب (وَسَمَ)، وزُحَا (عَفَلَى)، وهي في الصورة (فَعَلَى)، يدل على ذلك قولهم: (سِمَةٌ)، فإن أصلها (وَسِمَةٌ)، ويقولون: (سِيمَى) بالقصر، و(سيماء) بالمد، و(سيمياء) بزيادة الياء وبالمد، ويقولون: (سَوَمَ) إذا جعل سمة... سَوَمَ فرسه، أي: جعل عليه السيمة، وقيل: الخيل المسومة هي التي عليها السيماء والسومة، وهي (العلامة)».³

يتضح مما أوردنا أن كلمة (سيمياء) لغة مشتقة، وهي بمعنى (العلامة) أو (الآية). وجل الباحثين في هذا الحقل المعرفي، غالبا ما يستعملون ويفضلون مصطلحات السيميائية والسيمياء وعلم السيمياء... إلخ، دون غيره لأنه مصطلح ضارب في الأصل العربي. ومن المصادفات الألسنية الطريفة أن تلتقي المادة المعجمية العربية (سيمياء) صوتا ومعنى مع نظيراتها الأجنبية التي تقول جميعا إلى النواة اللغوية اليونانية القديمة Sêma بمعنى (علامة) Signe.⁴ وإلى هذا ذهب "عبد السلام المسدي" الذي رأى أن مثل هذا التلاقي اللغوي أمر عجيب ولا يحدث إلا نادرا جدا حيث تتماثل لغتان في موطن معين، ويوضح ذلك قائلا: «دون أن يكون في كل ذلك أي اقتران تاريخي، فليس ما حصل في هذه اللغة بمستعار من تلك، ولا الذي في تلك بمأخوذ عن هذه، وتحصل مثل هذه الظاهرة بين الألسنية البشرية وتكون من محض الصدفة أن يتفق لفظان من لسانين متباعدين اتفاقا في الشكل والمعنى دون صلة تاريخية، ويسمي اللسانيون هذه الظاهرة بالكلمات الأشباه، أو إذا قمنا بترجمة العبارة الفرنسية قلنا: الألفاظ ذات القرابة الوهمية».⁵

ويعرف "دو سوسير" Ferdinand de Saussure السيمياء والتي أطلق عليه اسم (السيمولوجيا) Sémiologie في كتابه ب: «نستطيع إذن أن نتصور علما يدرس حياة الرموز والدلالات المتداولة في الوسط المجتمعي. وهذا العلم يدرس جزءا من علم النفس

³ - ينظر، ابن منظور، لسان العرب. (دار صادر: بيروت). دت. ص: 311، 312. مادة (سوم).

⁴ - انظر: يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي. ص: 115.

⁵ - المصطلح الفرنسي الذي يرمي إليه المسدي هو: Les Faux amis.

السيمائية منهج ألسني نقدي ----- أ. أمال كعواش

المجتمعي، ومن ثم يندرج في علم النفس العام، ونطلق عليه مصطلح علم الدلالة Sémiologie (من الكلمة الإغريقية دلالة (Séméion)). وهو علم يفيدنا موضوعه الجهة التي تقتنص بها أنواع الدلالات والمعاني؛ كما يهدينا إلى القوانين التي تضبط تلك الدلالات. وما دام هذا العلم لم يوجد بعد فلا نستطيع أن نتنبأ بمصيره⁶، ثم يسترسل "دو سوسير" قائلا: «غير أننا نصرح بأن له الحق في الوجود وقد تحدد موضعه بصفة قبلية. وليس علم اللسان إلا جزءا من هذا العلم العام. وإن القوانين التي سيكشف عنها علم الدلالة ستكون قابلة للتطبيق على علم اللسان. وهكذا سوف يرتبط علم اللسان بحقل معين تمام التعيين داخل مجموعة الظواهر الإنسانية»⁷. فـ"دو سوسير" قد تصور وجود هذا العلم وبيّن اشتقاقه وأصله، كما يحدد موضوعه بأنه يهتم بأنواع الدلالات والمعاني ويدرس حياة الرموز والدلالات المتداولة في الوسط المجتمعي، وينادي بحقه في الوجود، كما يصف علاقة هذا العلم الآتي الذي لم يكن قد ولد بعد، بكل من علم النفس الذي هو الأصل الذي ينتمي إليه العلم المبشر به، وبين علم اللسان الذي سيكون جزء منه، كما يبين وظيفته وأهميته وذلك ببيان مدلولات الإشارات ومعرفة قوانينها التي تحكمها.

كما يرى "دو سوسير" أن اللسان نسق من العلامات التي تعبر عن المعنى أو الأفكار، وهو ما يمكن أن يقارن بلغة الصم والبكم والطقوس الرمزية الأخرى دينية كانت أم ثقافية مادامت وسط المجتمع. وأن العلامة اللغوية عنده هي كيان ثنائي المبنى مكون من (الدال) و(المدلول) فالدال هو الصورة الحسية الصوتية والمدلول هو المفهوم أو فكرة الصورة الصوتية الحسية وأن العلامة اللغوية ذات طبيعة اعتبارية أي لا ترتبط بدافع؛ أي أنها اعتبارية لأنها ليس لها صلة طبيعية بالمدلول.⁸

⁶ - فرديناند دي سوسير، محاضرات في علم اللسان العام. ترجمة: عبد القادر القنيني. (أفريقيا الشرق: المغرب). دط. - 2008م. ص: 31، 32.

⁷ - المرجع نفسه. ص: 32.

⁸ - انظر: عبد الله إبراهيم، سعيد الغامبي وآخرون، معرفة الآخر مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة. (المركز الثقافي العربي: الدار البيضاء). ص: 73 - 76.

السيمائية منهج السني نقدي ----- أ. أمال كعواش

وقد تزامن هذا التبشير مع ما كان يذهب إليه سيميائي آخر وهو الأمريكي "شارل ساندرس بورس" C.S. Peirce حيث أطلق هذا الأخير على هذا العلم اسم (السيميوطيقا) Sémiotique، ويرى أن النشاط البشري بمجمله نشاط سيميائي وبطبيعة الحال فإن النشاط اللساني هو نشاط سيميائي لأنه جزء من النشاط البشري. وتعني (السيميوطيقا) عنده؛ نظرية عامة للعلامات في الفكر الإنساني فهي نظرية للعلامات والأنساق الدلالية في كافة أشكالها.⁹ كما أنه يعطيها تحديداً أشمل وأكثر عمومية فهي كيان ثلاثي المبنى يتكون من (المصورة) ويقابلها (الدال) و(المفسرة) ويقابلها (المدلول) و(الموضوع) - ولا يوجد له مقابل عند "دو سوسير" - ووضح أن هناك أنواع للعلامات

هي (العلامة الأيقونية) أو الصورية و(العلامة المؤشيرية) أو الإشارية و(العلامة الرمزية).¹⁰ وخلاصة الرأي أن السيميولوجيا عند "دوسوسير" هي: علم يدرس دور الإشارات بوصفها جزءاً من الحياة الاجتماعية، أما بالنسبة إلى "بورس"، فحققت دراسة السيميائية هو: الشكلائي للإشارات، مما يقربها من المنطق،¹¹ إذن، فلقد ربط "بورس" هذا العلم بالمنطق، فالمنطق - عنده - ليس بمفهومه العام إلا اسماً آخر للسيميوطيقا. ولهذا اهتم "بورس" كثيراً بدراسة الدليل اللغوي من وجهة فلسفية خالصة.¹²

بيد أن احتفاء الباحثين بهذين القطبين السيميائيين، لا ينفي أن المصطلح قد استعمل - قبلهما - في سياقات علمية متقاربة؛ فقد استعمل أفلاطون مصطلح Sémiotiké إلى جانب مصطلح Grammatiké بمعنى تعلم القراءة والكتابة، ثم يختفي

⁹ - وهي نظرية أوسع نطاقاً من نظرية "دوسوسير"؛ لأن لها فاعلية خارج نطاق علم اللغة.

¹⁰ - عبد الله إبراهيم، سعيد الغانمي وآخرون، معرفة الآخر مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة. ص: 77، 78.

¹¹ - انظر: دانيال تشاندلر، أسس السيميائية. ترجمة: طلال وهبة. مراجعة: ميشال زكريا. (المنظمة العربية للترجمة: بيروت - لبنان). ط: 1. 2008م. ص: 30. نقلاً عن:

Charles Sanders Peirce, Collected Papers of Charles Sanders Peirce. 8 vols. Cambridge: Harvard University Press.

¹² - انظر: فيصل الأحمر، معجم السيميائيات. ص: 17.

السيمائية منهج ألسني نقدي ----- أ. أمال كعواش

هذا المصطلح قرونا طويلة، ليعود مع الفيلسوف الإنجليزي "جون لوك" الذي استعمل مصطلح Semeiotiké حوالي 1690م بدلالات مشابهة لاستعماله الأفلاطوني. مثلما استعمل مصطلح Sémiologie وأحيانا Sémiologie سنة 1752م، ضمن المجال الطبي، بمعنى الدراسة النسقية للأعراض المرضية.¹³

وما يمكن استنتاجه أن مصطلح (السيمياء) مصطلح يغوص في القدم وليس مصطلحا مستحدثا لا من قبل "دو سوسير" ولا من نظيره "بورس".

وعلى الرغم من أن مصطلح (Sémiotique) قد عرف تعدد مدلوله في الوسط الغربي من (Sémiologie، Sémasiologie، Semanalyse) فإنه أشهر مصطلحين هما: Sémiologie و Sémiotique. فالأوروبيون يفضلون مصطلح (السيمولوجيا) بتأثير من "دو سوسير" الذي وضع هذا المصطلح، أما الأمريكيون فيفضلون مصطلح (السيميوطيقا) بتأثير من "بورس" الذي وظفه في مختلف كتاباته حول العلامة.¹⁴ لكن الشائع في أيامنا هذه استعمال (السيمائية) كمصطلح عام يشمل كل الحقل المدروس.

إلا أن المصطلحين معا عرفا انتشارا متبادلا، ويكفي أن ندرك أن المنتمين إلى الثقافة الفرنسية لم يقصوا تماما من دائرة عنايتهم وكتاباتهم مصطلح (السيميوطيقا)، نظرا لانتشاره الواسع في الثقافات الأخرى، وخاصة الأنجلوسكسونية والروسية، كما أن مصطلح (السيمولوجيا) ظل راسخا في فرنسا وفي غيرها من البلدان اللاتينية.

وهناك من يرى أنه لم تعد ثمة أسباب أو مبررات تجعل أحد المصطلحين يحظى بالسيادة دون الآخر، ومن ثم دعوا إلى التطابق بين المصطلحين واستخدامهما بمفهوم واحد وذلك استنادا إلى القرار الذي اتخذته الجمعية العالمية للسيميوطيقا Semiotica التي انعقدت في فبراير عام 1969م بباريس وقررت تبني استخدام مصطلح (السيميوطيقا) Sémiotique، وتأسيس الرابطة الدولية للدراسات السيميوطيقية.¹⁵ يؤكد "أمبرتو إيكو"

¹³ - انظر: يوسف وجليسي، مناهج النقد الأدبي. ص: 96.

¹⁴ - انظر: فيصل الأحمر، معجم السيميائيات. ص: 13.

¹⁵ - المرجع نفسه.

السيمائية منهج ألسني نقدي ----- أ. أمال كعواش

ذلك قائلا: «لقد قررنا على كل حال أن نتبنى هنا بصفة نهائية مصطلح السيميوطيقا Sémiotique بدون أن نتوقف عند المناقشات حول التوريطات الفلسفية أو المنهجية لكلا المصطلحين. نحن نخضع بكل بساطة للقرار المتخذ في يناير سنة 1969م بباريس من لدن الهيئة الدولية التي تمخضت عنها الجمعية الدولية للسيميوطيقا والتي قبلت (بدون أن تقصي استعمال السيميولوجيا) مصطلح السيميوطيقا على أنه هو الذي ينبغي ابتداء من الآن أن يغطي جميع المفاهيم الممكنة للمصطلحين المتنافسين فيهما».¹⁶

ويحسن بنا في هذا المضمار رغم ما قيل في التفرقة بين المصطلحين، أن نستحضر بعض التعريفات المتأخرة للمنهج السيميائي ولو بإيجاز كي يتسنى لنا التمييز بين المصطلحين.

وأوسع تعريفات السيميائية عند العلماء الغربيين المعاصرين هو قول "أمبرتو إيكو": «تعني السيميائية بكل ما يمكن اعتباره إشارة»¹⁷ وبهذا عرفها كل من "تودوروف" Todorov T. و"غريماس" J.Greimas و"بيير غيرو" P. Guira وغيرهم، فهذا الأخير مثلا يذهب إلى أن السيميوطيقا علم يهتم بدراسة أنظمة العلامات جاعلا من اللغة جزءا من السيميوطيقا. فـ "غيرو" بهذا المعنى يتبنى الطرح نفسه السوسيري الذي يعتبر اللسانيات فرعا من السيميولوجيا.¹⁸

غير أن "رولان بارت" يرفض هذا الطرح ويقلب المعادلة على عقبيها، بتأكيد أنه السيميولوجيا لا يمكن أن تكون سوى نسخة من المعرفة اللسانية. فإذا كان العالم السوسيري قد ضيق الدرس السيميولوجي ووجه كل اهتماماته للغة، وجعلها الأصل ومحل

¹⁶ - انظر: جميل حمداوي، «مدخل إلى مناهج النقد». مجلة عالم الفكر. (الكويت). المجلد: 25. العدد: 3. مارس 1997م. ص: 79.

¹⁷ - دانيال تشاندلر، أسس السيميائية. ص: 28. نقلا عن:

Umberto Eco, A Theory of Semiotics. Advances in Semiotics. (Bloomington: Indiana University). Press 1976. P: 7.

¹⁸ - انظر: جميل حمداوي، «مدخل إلى مناهج النقد». مجلة عالم الفكر. (الكويت). المجلد: 25. العدد: 3. مارس 1997م. ص: 79.

السيمائية منهج السني نقدي ----- أ. أمال كعواش

الصدارة، فإن مفهوم "بارت" للسيمولوجيا فسح المجال لاستيعاب دراسة الأساطير واهتم بأنساق من العلامات التي أسقطت من سيميولوجية "دو سوسير" كاللباس وأطباق الأكل والديكورات المنزلية، ونضيف الأطعمة والأشربة وكل الخطابات التي تحمل انطباعات رمزية ودلالية.¹⁹

أما "جورج مونان" إلى جانب مجموعة من اللغويين المحدثين، فقد ذهبوا جميعا إلى أن السيميولوجيا تهتم بدراسة جميع السلوكيات أو الأنظمة التواصلية. فالسيمائية عندهم هي ذلك العلم الذي يدرس سائر الظواهر الثقافية بوصفها أنظمة للعلامات قائمة على فرضية مؤداها أن ظواهر الثقافة جميعها ما هي في الواقع سوى أنظمة علامات، وهذا يعني بلا شك بأن الثقافة في جوهرها هي عملية اتصال Communication.²⁰

يتبين لنا من خلال هذه التعريفات وغيرها من نظيراتها أن (السيمولوجيا) و(السيمويوتيقا) متقاربتان في المعنى، وموضوعها دراسة أنظمة العلامات أيا كان مصدرها لسانية أو غير لسانية. وهذا مؤشر واضح على أن العلامات وأنساقها هي الموضوع الرئيس للسيمائيات. فلم تعد ثمة أسباب أو مبررات تجعل أحد المصطلحين يحظى بالسيادة دون الآخر. وبالتالي يمكن القول مع من قال بأن السيميولوجيا أو السيميويوتيقا هي علم ونظرية عامة ومنهج نقدي تحليلي وتطبيقي.

أما عن مفهوم (السيمائية) كما استخدمها الاصطلاح العربي، فهي لا تختلف عن مفهومها الغربي، بل هي نفسها في كثير من الدراسات، لذلك لن نطيل فيها مقتصرين على بعضها فهي عند "صلاح فضل" تطلق: «على العلم الذي يدرس الأنظمة الرمزية في كل الإشارات الدالة وكيفية هذه الدلالة».²¹ ف «صلاح فضل بهذا التعريف يشترط أن تكون

¹⁹ - المرجع نفسه.

²⁰ - انظر: أمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية. ترجمة وتقديم: سعيد بنكراد. (المركز الثقافي العربي: الدار البيضاء). ط: 2. 2002م. ص: 52.

²¹ - انظر: نظرية البنائية في النقد الأدبي. (دار الشروق: القاهرة). ط: 1. 1998م. ص: 298. وينوه "صلاح فضل" إلى قضية هامة جدا تتعلق بالمصطلح، حيث يرى أن تسميتها بالسيمائية تكون موفقة في

السيمائية منهج ألسني نقدي ----- أ. أمال كعواش

الإشارات المدروسة ذات دلالة، لأن السيميائيات تدرس دلالة هذه الإشارات».²² ويذهب آخرون إلى ربطها بالثقافة ومظاهرها فهي عندهم: «دراسة لكل مظاهر الثقافة، كما لو كانت أنظمة للعلامة، اعتمادا على افتراض مظاهر الثقافة كأنظمة علامات في الواقع».²³

أما البعض فيرى أن السيمياء: «علم الإشارة الدالة مهما كان نوعها وأصلها. وهذا يعني أن النظام الكوني بكل ما فيه من إشارات ورموز هو نظام ذو دلالة. وهكذا فإن السيميولوجية هي العلم الذي يدرس بنية الإشارات وعلاقتها في هذا الكون، ويدرس بالتالي توزيعها ووظائفها الداخلية والخارجية».²⁴

ويعد آخرون السيميائية هي «دراسة حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية. وهي في حقيقتها كشف واستكشاف لعلاقات دلالية غير مرئية من خلال التحلي المباشر للواقعة، إنها تدريب للعين على التقاط الضمني والمتواري والمتمنع، لا مجرد الاكتفاء بتسمية المناطق أو التعبير عن مكونات المتن».²⁵

وغيرها من التعريفات العربية التي تصب في القالب الغربي نفسه الذي أعطي لها. ومن هذا يتضح أن مفهوم السيميائية هي علم العلامات أو الإشارات أو الدوال اللغوية

اللغة العربية لأن (سيمياء) بمعنى (العلامة)، ولكنه ولفظ الخلط وكثرة الاشتقاق يرى من الأفضل استخدام المصطلح الغربي. انظر المرجع نفسه.

²² - فيصل الأحمر، معجم السيميائيات. ص: 18.

²³ - المرجع نفسه.

²⁴ - بشير تاويريت، محاضرات في مناهج النقد الأدبي المعاصر دراسة في الأصول والملاحم والإشكالات النظرية والتطبيقية. (دار الفجر: الجزائر). ط: 1. 2006م. ص: 109. نقلا عن: مازن الوعر، مقدمة علم الإشارة - السيميولوجيا - لبيير جيرو. ترجمة: منذر عياشي. (دار طلاس للدراسات والترجمة). ط: 1. 1988م. ص: 9.

²⁵ - سعيد بن كراد، السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها. (منشورات الزمان: الرباط - المغرب). دط.

2003م. ص: 42.

السيمائية منهج السني نقدي ----- أ. أمال كعواش

والرمزية سواء أكانت طبيعية أم اصطلاحية وهذا يعني أنها تدرس كل ما هو لغوي وغير لغوي.

كما يبدو أن الدارسين المعاصرين العرب يتعاملون مع السيميائيات كذلك باعتبارها منهجا يساعد على فهم النصوص والأنساق العلامية وتأويلها، ولهذا فإننا نقرأ بين الحين والآخر دراسات وأبحاثا يتوسل أصحابها بالسيمائيات - بصفتها منهجا في المقاربة والدراسة - ومن ذلك بعض دراسات "عبد الملك مرتاض" التي تعتمد إلى تجريب المنهج السيميائي في تشريح نصوص أدبية قديمة وحديثة.

2- الإرهاصات الأولى للسيمائية

على الرغم من أن السيميائية تعد علما حديث النشأة، فإن جذور هذا المنهج الأولى موعلة في القدم، إذ أن استثمار السيميولوجيا في تفسير مكونات النص، والوقوف عند مقصديته، ليست بالجديدة، حيث «يقترن وجودها بالفكر اليوناني القديم مع أفلاطون وأرسطو اللذين أوليا اهتماما بنظرية المعنى، وكذلك مع الرواقين الذين وضعوا نظرية شاملة في هذا المعنى بتمييزهم بين الدال والمدلول والشيء ... أما المناطق والأصوليون والبلاغيون والمفسرون العرب، فقد أولوا - بدورهم - عناية كبرى بكل الأنساق الدالة تصنيفا وكشفنا عن قوانينها وقوانين الفكر».²⁶

كما يعد "جون لوك" J. Locke أول من استعمل مصطلح السيميوطيقا وقصد به العلم الذي يهتم بطبيعة الدلائل التي يستعملها العقل بغية فهم الأشياء أو نقل معرفته إلى الآخرين،²⁷ ثم استعمل مرة أخرى على يد "ليبنيز" Leibniz فجعل هذا العلم على علاقة بكل أجزاء النسق بما فيها المقتضيات الفلسفية والوجودية والمعرفية لنظرية العلامات.²⁸

²⁶ - عامر الحلواني، في القراءة السيميائية. (كلية الآداب والعلوم الإنسانية: صفاقص - تونس). ط: 1.

2005م. ص: 25.

²⁷ - المرجع نفسه.

²⁸ - انظر: عامر الحلواني، في القراءة السيميائية. ص: 25.

السيمائية منهج ألسني نقدي ----- أ. أمال كعواش

إلا أن "فرديناند دو سوسير" Ferdinand de Saussure - وهذا باتفاق جل الباحثين - يعد أول من أسس النشأة الحقيقية لهذا العلم، فهو أول من بشر بالمشروع السيميولوجي المعاصر في كتابه: محاضرات في علم اللسان العام Cours de Linguistique Générale، وذلك بين نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، حيث بشر بظهور علم جديد سماه (السيمولوجيا) Sémiologie والذي سيهتم بدراسة الدلائل أو العلامات، ولقد كانت الغاية المعلنة والضمنية للسيمولوجيا هي تزويدنا بمعرفة جديدة ستساعدنا لا محالة على فهم أفضل لمناطق هامة من الجانب الإنساني والاجتماعي ظلت مهملة ولفترة طويلة، وذلك لوجودها خارج دائرة التصنيفات المعرفية التقليدية،²⁹ وفي هذا الصدد يقول "دو سوسير": «نستطيع إذن أن نتصور علما يدرس حياة الرموز والدلالات المتداولة في الوسط المجتمعي. وهذا العلم يدرس جزءا من علم النفس المجتمعي، ومن ثم يندرج في علم النفس العام، ونطلق عليه مصطلح علم الدلالة Sémiologie (من الكلمة الإغريقية دلالة (Séméion))». ³⁰ ثم يسترسل قائلا: «وهو علم يفيدنا موضوعه الجهة التي تقتنص بها أنواع الدلالات والمعاني؛ كما يهدينا إلى القوانين التي تضبط تلك الدلالات. وما دام هذا العلم لم يوجد بعد فلا نستطيع أن نتنبأ بمصيره. غير أننا نصرح بأن له الحق في الوجود وقد تحدد موضعه بصفة قبلية. وليس علم اللسان إلا جزءا من هذا العلم العام. وإن القوانين التي سيكشف عنها علم الدلالة ستكون قابلة للتطبيق على علم اللسان. وهكذا سوف يرتبط علم اللسان بحقل معين تمام التعيين داخل مجموعة الظواهر الإنسانية».³¹

وقد تزامن هذا التبشير مع مجهودات الفيلسوف الأمريكي "شارل ساندرس بورس" C.S. Peirce في الضفة الأخرى من المحيط الأطلسي - أمريكا - حيث بشر

²⁹ - انظر: سعيد بن كراد، السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها. (مقدمة).

³⁰ - فرديناند دي سوسير، محاضرات في علم اللسان العام. ص: 31، 32.

³¹ - فرديناند دي سوسير، محاضرات في علم اللسان العام. ص: 32.

السيمائية منهج ألسني نقدي ----- أ. أمال كعواش

"بورس" بدوره بميلاد علم جديد يقوم أساسا على المنطق³² هو (السيموطيقا) Sémiotique (التي تتبنى الاسم المعرب لها وهو السميائيات)، وقد نحى في ذلك منحى فلسفي منطقي - كما سيتبين معنا ذلك فيما بعد- وتبعنا لهذا فهو يرى أن النشاط الإنساني نشاط سيميائي في مختلف مظاهره وتحليلاته. ويعد هذا العلم في نظره إطارا مرجعيا يشمل كل الدراسات، ويعلن "بورس" أنه «ليس باستطاعته أن يدرس أي شيء في هذا الكون كالرياضيات والأخلاق أو الميتافيزيقا والجاذبية الأرضية والديناميكا الحرارية والبصريات والكيمياء وعلم التشريح المقارن وعلم الفلك وعلم الصوتيات وعلم الاقتصاد وتاريخ العلم والكلام والصمت ... وعلم القياس والموازين إلا باعتباره نسقا سيميوطيقيا».³³ ويحضرنا في هذا المقام قول أحد الدارسين: «ولدت السيميولوجيا والسيموطيقا مرتين في بداية هذا القرن، ومن شأن هذه النشأة أن تفسر تطور مدارس متباينة داخل هذا العلم الوليد، على الرغم من العناصر المشتركة بينهما».³⁴

لقد أجمع أغلب النقاد المحدثون على أن "بورس" لم يلتق أو لم يقرأ عن "دو سوسير" والعكس صحيح أيضا، إلا أن معطياتهما تكاد تكون متقاربة ومنسجمة في بعض المواضع، فالعديد من الدراسات تجمع على أن كلاهما عاشا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وماتا في مطلع القرن العشرين، كما أن كليهما أسس لعلم نقدي لغوي شامل، وهو علم السيميائية أو علم العلامات كل بطريقته، وكلاهما انطلق في تأسيس ذلك من خلال الحديث عن معطيات العلامة وتصنيفاتها ومداخلها، وميادين تنظيرها وتطبيقها، وكلاهما أسهم في إنعاش الحركة النقدية والمعرفية الأوروبية، وعدت معطياتهما طرائق يهتدى بها في السلوك التحليلي الفلسفي والنقدي واللغوي الحديث.

³² - مع أن "بورس" يعده الكثير من الباحثين أحد رواد هذا المنهج، إلا أن منهجه لم يشتهر إلا بعد وفاته، لأنه لم يخص هذا التوجه للبحث اللساني أو الأدبي، بل كثيرا ما أعطى بحوثه صبغة فلسفية، فكثيرا ما كان يوظف المبادئ والقواعد المنطقية أثناء تقسيماته للعلامة أو الدليل.

³³ - عامر الحلواني، في القراءة السيميائية. ص: 26. نقلا عن:

C. Peirce , écrits sur le signe. Traduit par G. Deledalle. Paris. éd. Seuil. 1970. p: 32.

³⁴ - المرجع نفسه. ص: 26، 27.

السيمائية منهج ألسني نقدي ----- أ. أمال كعواش

لكن على الرغم من ظهورهما في مرحلة زمنية متقاربة، وتقارب معطياتهما في بعض المواضع، إلا أن العديد من الدراسات تذهب إلى أن بحث كل منهما مستقل وانفصل عن الآخر. فالأول - أي "دوسوسير" - بشر في محاضراته بظهور علم جديد سماه (السيمولوجيا) Sémiologie سيهتم بالعلامة ووضع خواصها الأساسية، حيث رأى "دوسوسير" أن العلامة اللغوية تندرج في منظومة أكبر هي العلامات بصفة عامة، فإذا كانت الكلمة علامة على الفكر أو الشيء، فإنها تقترب في ذلك من علامات أخرى سمعية وبصرية تدل على شيء آخر غير ذاتها. وبعبارة أخرى يعد علم اللغة جزءا من علم أكبر منه يخضع له ولقوانينه ألا وهو السيمولوجيا.³⁵

فاللغة عند "دوسوسير" لا تكتسب معناها نتيجة الصلة بين الكلمات والأشياء، بل نتيجة كونها أجزاء في نسق من العلاقات. فلقد رفض هذا الأخير الفكرة التي ترى في اللغة كومة من الكلمات التي تتراكم تدريجيا لتؤدي وظيفة أولية هي الإشارة إلى الأشياء في العالم، بل اللغة عنده مجموعة من العلامات، حيث كل علامة تفصح عن علاقة ثنائية، إذ أنها لا تجمع بين الشيء ومسماه، ولكنها تجمع بين المفهوم الذهني والصورة السمعية؛ أي بين الدال والمدلول. ومن ثم فأساس اللغة عنده أنها علامات اعتباطية مع إهمال أن العلامة لها علاقة بعالم الواقع.³⁶ وبالإضافة إلى هذه العلاقة الاعتباطية بين الدال والمدلول والتي استلهمت كثيرا فكر "دوسوسير" فقد كانت إشارات إلى قيمة العلامة والمحاور الاستبدالية والتركيبية وقضية النظام تشكل محاور أساسية سينبني عليها علم جديد في المستقبل ويقصد به السيمولوجيا.

أما العالم الثاني ونقصد به "بورس" فقد حدد العلم الذي بشر به بـ (السيمائية) Sémiotique وهو ما يعني عنده نظرية تعنى بالعلامات وتمفصلاتها في الفكر الإنساني، فلقد أسس "بورس" الخطوات المنهجية لدراسة العلامة وتقسيماتها وأهميتها دراستها، وتصنيف

³⁵ - انظر: صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر. ص: 97.

³⁶ - انظر: محمد السريغيني، محاضرات في السيمولوجيا. (دار الثقافة: الدار البيضاء). ط: 1. 1987م.

ص: 56.

السيمائية منهج أليني نقدي ----- أ. أمال كعواش

الحقول التي تسهم العلامة في الاشتغال فيها، ويمكن القول إنها تعمل بنشاط في كل ميادين الحياة المختلفة. وتتسم خطوات "بورس" هذه بميزتين:

الأولى: أنها تحليل فلسفي منطقي.

الثانية: الإيغال في التقسيم والتفصيل.

ففيما يتعلق بالنقطة الأولى اتسم تحليل "بورس" للعلامات بوصفها تحليلًا فلسفيًا منطقيًا من حيث استخدام المصطلح الفلسفي، ثم تصنيف العلامات وفقًا لذلك، ولا غرابة في هذا لأن "بورس" هو فيلسوف، واشتغاله في الميدان الفلسفي أوسع وأكبر من اشتغاله بالميدان النقدي، أما فيما يتعلق بالميزة الثانية فقد كانت تقسيمات "بورس" للعلامة وفروعها، تقسيمات ثلاثية.³⁷

قام "بورس" بدراسة العلامة ومحاولة تحليل أنواعها المختلفة والتي قسمها إلى (مصورة / مفسرة / موضوع)، وميز بين مستوياتها المتعددة، مما نشأ عنها ثلاثة أبعاد للبحث السيميوطيقي هي التداولية Pragmatique وعلم الدلالة Sémantique وعلم التركيب Syntaxe.³⁸ وهذا يدل على المبدأ الشكلي للعلامات عند "بورس"، وبالتالي تعد سيميائية "بورس" مطابقة لعلم المنطق.

إن السيميولوجيا تدرج عند "دوسوسير" في علم النفس الاجتماعي، فهي جزء من علم النفس العام، وتدرس كل الأشكال غير اللفظية، كعلامات المرور، ولغة الصم البكم ... إلخ، بينما تدرج السيميائية بوصفها دراسة للتجربة الإنسانية كما يراها "بورس" ضمن علم المنطق، حيث يمكن النظر إلى كل النشاطات الإنسانية من وجهة سيميائية، سواء كانت فيزياء أم رياضيات أم سياسة أم اقتصادا... إلخ، فالسيميائيات إذا نظرية للعلامات،

³⁷ - انظر: جيرار دولودال، السيميائيات أو نظرية العلامات. ترجمة: عبد الرحمن بوعلي. (مطبعة النجاح

الجديدة: الدار البيضاء). ط: 1. 2000م. ص: 14.

³⁸ - انظر: عامر الحلواني، في القراءة السيميائية. ص: 27.

السيمائية منهج السني نقدي ----- أ. أمال كعواش

خصوصا أن العلامة في التحديد البورسي، هي كل ما يقوم مقام شيء ما ويمثله، ومنه فالكون كله علامة، والسيمائيات دراسة لهذا الكون العلامي.³⁹

وعلاوة على هذين المنبعين الرئيسين - مبادئ "دو سوسير" و"بورس" يذكر "تودوروف" منابع أخرى غدت السيمائيات المعاصرة وأسهمت في بلورتها. وتتجلى هذه المنابع في مجهودات الفيلسوف الألماني "إرنست كاسيرر" E. Cassirer، صاحب فلسفة الأشكال الرمزية الذي وضع . قبيل أواسط القرن العشرين . تصورات عميقة وغنية حول الأنساق الرمزية التي يستعملها الإنسان ويعيش داخلها، والتي تحدده باعتباره حيوانا رامزا. أما عن أهم مجهود قام به فيتخلص في عمله الرائد: فلسفة الأشكال الرمزية La philosophie des formes symboliques الذي طرح فيه بجلاء مبدئين رئيسين:⁴⁰

- أولهما أن اللغة أوسع من كونها مجرد أداة تواصلية.

- وثانيهما أن اللغة ليست هي الوحيدة التي تنعم بامتياز التواصل، وإنما تتقاسمه مع سلسلة أخرى من الأنساق التي تشكل - في مجموعها - عالم الإنسان. وهذه الأنساق هي: الأسطورة Le mythe والدين والفن والعلم والتاريخ. وليس العالم سوى تشكيل من هذه (الأشكال الرمزية) Les formes symboliques.

إلا أن مشروع "كاسيرر" لم يتطور في اتجاه النضج والتماسك، لأنه كان بالأساس مشروعا فلسفيا أكثر منه إسهاما علميا.⁴¹

وإلى جانب هذا المنبع الألماني الذي كان له الدور الفعال في نضج السيمائية، هناك مورد آخر أشار إليه كذلك "تودوروف" في معجمه، ويتمثل في أبحاث فلسفة اللغة والمنطق Logique التي سادت في التقاليد الأكاديمية الأمريكية في منتصف القرن العشرين، والتي

³⁹ - انظر: محمد السرغيني، محاضرات في السيميولوجيا. ص: 56، 57.

⁴⁰ - فريد أمعشوشو، «المنهج السيميائي». من موقع لحسن عزوز للدراسات النقدية السيميائية. نقلا عن:

T. Todorov et O. Ducrot: Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage. P 116 - 119.

⁴¹ - المرجع نفسه.

السيمائية منهج ألسني نقدي ----- أ. أمال كعواش

كانت قد تبلورت انطلاقاً من تصورات المنطق الرمزي لمدرسة فيينا.⁴² وقد تمخضت هذه التقاليد عن نظريات لسانية تداولية Pragmatiques، والتي سرعان ما تقاطعت مع مفاهيم "بورس"، وتوسعت مع "شارل موريس" Ch. Morris لترسم معالم مبحث تداولي للعلامات عام وشامل. كما يضيف "تودوروف" إلى هذه المنابع كتابات رواد اللسانيات البنيوية أمثال: "ساير" E. Sapir و"تروبتسكوي" N. Trubetskoy و"جاكسون" R. Jacobson و"هلمسليف" L. Hjelmslev و"بنفنيست" É. Benveniste، حيث اهتم هؤلاء بالمنظور السيميولوجي، وعملوا على تحديد موقع اللغة داخل الأنساق السيميوطيقية الأخرى.⁴³

1. بقيت مسألة أخيرة تجدر الإشارة إليها، وهي أن أهم خاصية في المنهج السيميائي هو أنه منهج (داخلي) محايد وهو بذلك يعد من المناهج التي جاءت كردة فعل على الاتجاهات التي تعنى بدراسة إطار النص ومحيطه وأسبابه الخارجية، وعليه دعا المنهج السيميائي إلى ضرورة التركيز على الجوهر الداخلي للنص، لوجود نمط خاص ونظام متعلق به، فهو يعتبر النص كياناً لغوياً مستقلاً أو جسداً لغوياً أو نظاماً من الرموز والدلالات التي تولد وتعيش فيه، ولا صلة لها بخارج النص،⁴⁴

وهكذا تبني التحليل السيميائي النهج نفسه الذي سلكه الشكلاونيون الروس والبنويون من قبل، فتدل الممارسات النقدية على أن التحليل السيميائي يتكئ بالدرجة الأولى على اللسانيات البنيوية أو يلتقي معها في جملة من الأسس النظرية والإجراءات التطبيقية لقاء الابن بالأب، فإذا كان المنهج البنيوي يسعى إلى دراسة النص في إطار البنية اللغوية الداخلية وتفسيره في حدودها، فإن المنهج السيميائي لا يتعد عن هذا المنحى، وإن

⁴² - وذلك مع "فريجه" Frege مروراً بـ "راسل" Russel و"كارناب" Carnap، كما أسهم "بويسنس" Buysens في هذا المضمار بكتابه: Les langages et le discours الصادر عام 1943 وغيرهم.

⁴³ - فريد أمعشوش، « المنهج السيميائي ». من موقع لحسن عزوز للدراسات النقدية السيميائية.

⁴⁴ - انظر: شكري عزيز الماضي، في نظرية الأدب. (دار الحداثة: بيروت - لبنان). ط: 1. 1986م. ص:

السيمائية منهج السني نقدي ----- أ. أمال كعواش

كان يتجاوز إلى محاولة الوقوف على كل الملاحظات الخارجية لفضاء النص، وإدراك الظواهر الاجتماعية والنفسية والثقافية الخفية في جوانبها التواصلية اللغوية منها وغير اللغوية - بما في ذلك طبيعة الإشارات وأنساقها وخواصها-⁴⁵ بغية تحقيق أكبر قدر من القراءات الاحتمالية؛ بحيث يظل النص مفتوحاً على قراءات أخرى؛ ولذلك يذهب "بول ريكور" P. Ricœur إلى أنه «لا ينبغي لأي تفسير أن يكون احتمالياً وحسب، بل عليه أن يكون أكثر احتمالاً من أي تفسير آخر، وأن هناك معايير للتفوق النسبي».⁴⁶

وقد فتحت هذه التصورات التأسيسية الطريق أمام اجتهادات علمية أخرى مست ميادين ومجالات متنوعة ومتباينة، وأدت إلى تشكل اتجاهات ومدارس سيميائية عديدة ومختلفة؛ غير أن العنصر الأساس للدراسة السيميائية ظل هو (العلامة) le Signe، والتي اختلف مفهومها باختلاف النظريات والاتجاهات السيميائية التي ظهرت.

وتبنت نتائج السيميائية النظرية منها والتطبيقية علوم كثيرة كالأنثروبولوجيا والسوسيولوجيا والتحليل النفسي والتاريخ والخطاب الحقوقي وكل ما له صلة بالآداب والفنون البصرية وغيرها. بل لقد شكلت السيميائيات منذ الخمسينات من القرن الماضي في المجال الأدبي تياراً فكرياً أثرت الممارسة النقدية المعاصرة وأمدتها بأشكال جديدة لتصنيف الوقائع الأدبية وفهمها وتأويلها. ويأتي في مقدمتها، ظهور جماعة (كما هو) Tel Quel التي تأسست في باريس سنة 1960م، وتمثلت في منطلقها الاتجاه الماركسي، ثم انتهت إلى التصوف والتفكير الديني.⁴⁷ كما مهدت الطريق كذلك (الجمعية الأدبية للسيميائ) سنة 1969م حين أصدرت دوريتها الفصلية (سيميائ) Semiotica بباريس، واستقطبت نخبة من الباحثين، أمثال "جوليا كريستيفا" J. Kristeva من فرنسا، و"أمبرتو إيكو" U. Eco من

⁴⁵ - انظر: حاتم الجليلي، المنهج السيميائي وتحليل البنية العميقة للنص. مجلة الموقف الأدبي. (دمشق).

السنة: 31. العدد: 365. 2001م. ص: 24.

⁴⁶ - المرجع نفسه. نقلاً عن: Recœur Paul. De Textes a L'action. Paris: Seuil. 1986. P: 202.

⁴⁷ - انظر: محمد عزام، النقد والدلالة نحو تحليل سيميائي للأدب. (وزارة الثقافة: دمشق). دط.

1996م. ص: 61.

السيمائية منهج ألسني نقدي ----- أ. أمال كعواش

إيطاليا، و"يوري ليتمان" Y-Lotman من روسيا، و"سيبوك" Sybock من أمريكا
وغيرهم.⁴⁸

3- اتجاهات النقد السيميائي

على الرغم من حداثة المنهج السيميائي في مجال النقد خصوصاً، إلا أنه لم يكـد
يستوي على عودـه، حتى سلك عدة اتجاهات في تناول النص:

أ- اتجاه أول، يرى أن السيمياء هي دراسة الأنظمة الدالة من خلال الظواهر
الاجتماعية والثقافية الملائسة للنص، من منظور أنها جزء من اللسانيات - وهذا طبعاً
خلاف ما ذهب إليه "دو سوسير" - ويعتبر هذا الاتجاه من أكثر الاتجاهات التي ساعدت
على تطوير هذا العلم وضبط أسسه ومصطلحاته مثله في ذلك مثل أي فرع من فروع
اللسانيات، ويؤكد على دراسة أنظمة الاتصال غير اللغوية بخاصة. ومن أهم من مثل هذا
الاتجاه من النقاد نجد: "رولان بارت" R. Barthes و"بيير جيرو" P. Guira
و"غريماس" Greimas، غير أن "رولان بارت" يأتي على رأس هؤلاء جميعاً.⁴⁹

جاءت محاولات "بارت" لتواصل الجهود الفلسفية للسيمائية التي بدأها "بورس"
والجهود اللغوية التي بدأها "دو سوسير" واستطاع أن يقدم مفهوماً جديداً للسيمائية من
خلال تجاوزه البعدين الفلسفي واللغوي لها إلى البعد النقدي. فلقد ركز "بارت" في أعماله
على تطبيق مفاهيم اللسانيات في شكلها البنوي، ووجهتها الدلالية المتصلة بالحياة
الاجتماعية للأفراد والجماعات، إلا أن "بارت" في أعماله تلك راح إلى نقض المتراجحة
السوسيرية التي تفترض أن ما هو سيميولوجي يتجاوز Déborde الألسني، عن قناعة منه
بأن العلامات الغيرية Objectaux، غير اللغوية، لا تكتمل هويتها ما لم يُتحدث عنها
لغويًا، أي قبل أن تصبح علامات لفظية Verbeaux، وراح ينقل تلك المتراجحة إلى
الشكل العكسي الحديد (الألسنية < السيميولوجيا)، مجسداً ذلك أفضل تجسيد في كتابه:

⁴⁸ - المرجع نفسه. ص: 10.

⁴⁹ - انظر: محمد السرغيني، محاضرات في السيميولوجيا. ص: 59، 60.

السيمائية منهج السني نقدي ----- أ. أمال كعواش

نظام الموضة، الذي خصصه لدراسة عالم الأزياء والأناقة وما في حكم ذلك من علامات غير لغوية، إلا أنه أعرب عن أنه لا يشتغل على الموضة الحقيقية بل على الموضة المكتوبة؛ أي على الأزياء كما تصورها جرائد الموضة.⁵⁰

وبهذا الطرح الجديد الذي وصل إليه اللسانيون، نجد أن "بارت" يستعمل مصطلح سيميولوجيا اتفاقا مع "دوسوسير"، إلا أنه يخالفه في مفهوم العلامة التي تربط اللسانيات بالسيمولوجيا، فإذا كانت عند "دوسوسير" علاقة فرع بأصل، حيث يقول في ذلك: «ليست الألسنية سوى أحد فروع هذا العلم العام (السيمولوجيا)»،⁵¹ يقلب "بارت" الأطروحة السوسيرية جاعلا من اللسانيات أصلا والسيمولوجيا فرعا، وبذلك تجد الدراسة السيمائية مصداقيتها في النقد الأدبي، خاصة من مقولة "بارت" الشهيرة «يجب منذ الآن قلب، تقبل إمكانية قلب الاقتراح السوسيري ليست اللسانيات جزءا ولو مفصلا من علم الأدلة العام، ولكن الجزء هو علم الأدلة، باعتباره فرعا من اللسانيات»،⁵² وهي مقولة مست هذا الاتجاه في أسسه النظرية وإجراءاته التطبيقية ومصطلحاته المفتاحية.

وهكذا، لم يتوقف البحث السيميائي عند "بارت" على ما عهدده، بل أخذ معه مسارا تطوريا عمق المجال السيميائي تعميقا نوعيا في اتجاه (سيمائية الدلالة) على أساس أن كل الوقائع دالة، وأن كل بنية سيميائية تتمتج باللغة، وأن كل المجالات المعرفية ذات العمق السيميائي الحقيقي تفرض علينا مواجهة اللغة ... فالأشياء تحمل دلالات، ولكنها لا تكتسب صفة النسق السيميائي إلا من اللغة،⁵³ لذلك يستبعد "بارت" إمكان وجود

⁵⁰ - انظر: يوسف وغلبيسي، مناهج النقد الأدبي. ص: 94.

⁵¹ - انظر: دانيال تشاندلر، أسس السيميائية. ص: 37. نقلا عن:

Saussure, Course in General Linguistics. P: 16 – 17.

⁵² - غريب اسكندر، الاتجاه السيميائي في نقد الشعر العربي. (المجلس الأعلى للثقافة: القاهرة). ط: 1.

2002م. ص: 22. نقلا عن: Roland Barthes , Elements de Semiologie Cominications. V4

Eseul Paris. 1964. P: 134.

⁵³ - انظر: عامر الحلواني، في القراءة السيميائية. ص: 31.

السيمائية منهج ألّسني نقدي ----- أ. أمال كعواش

المعنى خارج اللغة، فهي -عنده - تعبير عن جوهر المدلولات، مما يعني أنه قلب المعادلة السوسيرية كما سبق وأشرنا إلى ذلك.

لقد اهتم "بارت" كثيرا بما تقدمه السيميولوجيا خاصة من ناحية دلالية المعنى، فلقد اعتبر النص آلة لغوية ليس من السهل التحكم بها وإنما علينا أن نترك لأجزاء النص وما فيه من علامات متسعا من الحوار والجدل والتفاعل الداخلي الذي يكشف عن وجود طرق مختلفة للإبلاغ والتوصيل والتعبير.⁵⁴

أما نظيره الفرنسي "غريماس" فقد جعل من شكل الدلالة موضوعا سيميائيا للبحث، مستفيدا في هذا التحديد من "هلمسليف" ومتخذا السردية أساسا لتحليل جميع الخطابات الإنسانية، فمن خلال المربع السيميائي قام "غريماس" بتحليل الأشكال المعقدة للدلالة إلى عناصر بسيطة حيث خصص لتجسيد المعنى ثلاث علاقات منطقية وهي (التضاد والتناقض والتضمن) ويرى الباحث أن ما يمكن استخلاصه من المربع السيميائي أن كل عمل قصصي يمكن تجريده إلى أربع نقاط تفضي كل منها إلى علاقة بالأخرى سواء كانت علاقة تعارض وتناقض أم علاقة انسجام وتكامل وائتلاف.⁵⁵ وقد عرفت مدرسته بمدرسة باريس السيميائية، ناشئا منها نظرية السيميائيات السردية وتبعه في ذلك "مشال أريفيه" وغيره. ولقد عمل على تأكيد هذه التسمية ما صدر عنهم من كتاب بعنوان: السيميوطيقا، مدرسة باريس.⁵⁶

ب- اتجاه ثان، يرى أن السيمياء هي دراسة لأنظمة الاتصال اللغوية منها وغير اللغوية،⁵⁷ ويسعى إلى تحديد هذه الأنظمة المختلفة وفق عدد من الإشارات التي من ضمنها الألفاظ اللغوية. وقد تبني هذه الوجهة كل من "جورج مونا" G. Mounin

⁵⁴ - انظر: إبراهيم خليل، في النقد والنقد الألسني. ص: 93.

⁵⁵ - المرجع نفسه. ص: 94.

⁵⁶ - انظر: محمد السريغيني، محاضرات في السيميولوجيا. ص: 60.

⁵⁷ - والمقصود بالإشارة أو الرمز غير اللغوي عامة، هي كل علامة غير ثابتة الدلالة وقابلة للتفسير والتأويل.

السيمائية منهج ألسني نقدي ----- أ. أمال كعواش

و"بريتو" Prieto و"أندريه مارتينييه" A. martinet وغيرهم. أي أن هذا الفريق اشتغل على السيميولوجيا التواصلية، فقاموا بدراسة الأنساق التواصلية المختلفة من وجهة سيميائية، فـ"مارتينييه" مثلاً يرى أن الوظيفة الرئيسية للأداة التي تمثلها اللغة هي وظيفة الإبلاغ.⁵⁸ ويتضح من هذه المقولة أن السيميائية إنما هي أساس للتواصل عامة، وبذلك تصبح اللغة أو الرموز اللغوية جزءاً من أنظمة التواصل مثلها مثل الإيماء والإشارة.

ج- أما الاتجاه الثالث، فحاول أن يوفق بين الاتجاهين السابقين؛ أي بين العلامة اللغوية والعلامة غير اللغوية باعتبارهما يتكاملان مع اللسانيات، وقد برزت في هذا المنحى جملة من المقاربات النظرية والتطبيقية تندرج تحتها أعمال كل من الباحث الإيطالي "أمبيرتو ايكو" و"جوليا كريستيفا" وغيرهما.

وتذهب "كريستيفا" إلى عدم قبول حصر السيميولوجيا في دراسة الأنساق التواصلية فحسب، فالسيميوطيقا عندها هي لحظة التفكير في قوانين التدليل، دون أن تبقى أسيرة اللغة التواصلية التي تخلو من مكان الذات. والتدليل عند "كريستيفا" يرتبط ومفاهيم (الإنتاج) أو (التوليد)، فلم تعن هذه الأخيرة بأن يكون الإبداع الأدبي موضوعاً للتحليل بقدر ما جعلته في الإنتاج الأدبي، ولذلك لم تكن الدلالة هدفاً لها بل المدلولية. وعليه أضافت كلمة Analyse وأصبح مشروعها التحليلي يسمى (علم الدلالة التحليلي) Sémalyse.⁵⁹

الخاتمة

لقد فتحت السيميائيات أمام الباحثين في مجالات متعددة آفاقاً جديدة لتناول الإنتاج الإنساني من زوايا نظر جديدة. بل يمكن القول إن السيميائيات أسهمت بقدر كبير في تحديد الوعي النقدي من خلال إعادة النظر في طريقة التعاطي مع قضايا المعنى، ولقد

⁵⁸ - انظر: غريب اسكندر، الاتجاه السيميائي في نقد الشعر العربي. ص: 21.

⁵⁹ - انظر: مارسيلو داسكال، الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة. ترجمة: حميد الحمداني وآخرون. (أفريقيا

الشرق: الدار البيضاء). ط: 1. 1987م. ص: 69 - 71.

السيمائية منهج ألسني نقدي ----- أ. أمال كعواش

قدمت في هذا المجال مقترحات هامة عملت على نقل القراءة النقدية من وضع الوصف المباشر للوقائع النصية، إلى التحليل المؤسس معرفيا وجماليًا.⁶⁰

وبناء على المبادئ التي يعمل بها المنهج السيميائي انتشر هذا الأخير في العديد من الدراسات، وامتزجت السيميائية بالعديد من العلوم كالعلوم الدقيقة مثل الرياضيات والبيولوجيا والفيزياء، وعلوم إنسانية كعلم النفس واللسانيات، ومنها انفتحت على مجالات متعددة للدراسة تجمع بين الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع والفينومينولوجيا وغيرها. كما صدرت دوريات متخصصة تحمل اسم السيميائية مثل دورية (الجمعية الدولية للدراسات السيميوطيقية) Semiotica و(دورية) Semiosis الألمانية و Versus الإيطالية Degres البلجيكية، فضلا عن مئات الدراسات التي تنتشر في دوريات علم اللغة واللسانيات والأسلوبية وعلم الجمال والنقد الأدبي وغيرها. أغنت هذه النظريات المتعددة المنهج السيميائي في التحليل، استطاعت من خلالها تحقيق استقلاليتها الذاتية المعرفية، محددة بذلك موضوعها في البحث عن تناسل المعنى في كل النشاطات

⁶⁰ - انظر مقدمة كتاب: سعيد بن كراد، السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها.